شروط التواصل*

فرانسوا تراستيي

ترجمة: حبيبة الصّافي

تقديم:

يعرف العصر الراهن انتشارا واسعا لوسائل الاتصال التي اغتنت بفضل اكتساح التكنولوجيا الرقمية لمختلف مجالات الحياة الإنسانية. عمل هذا الانتشار، بالموازاة مع توفير شروط التواصل السريع، على تكسير الحواجز الجغرافية، في محاولة لإلغاء التميز الثقافي الذي حافظت عليه المجتمعات الإنسانية طوال العصور الماضية. أمام هذا الوضع المنفتح يصبح التعريف بالتواصل أمرا ضروريا. فإذا كانت العملية التواصلية تمارس، في الغالب، بشكل تلقائي يسهل معه تمرير العديد من الإرساليات المعلنة والمضمرة على حد سواء، فإن تفكيك هذه العملية إلى مجموعة من الشروط والمكونات والإواليات سيقوم حتما بإلقاء الضوء وتوضيح الغموض الذي يمكن أن يعتريها. إذ تعتبر كل عملية تواصلية معقدة مهما بدت بسيطة؛ حيث تتضافر في تشكيلها مجموعة من الأنساق السوسيوثقافية التي تخترق كافة العناصر والفعاليات المساهمة في تحقيق مسارها. ذلك ما يوضحه النص المترجم حيث يحلل راستيي مستويات وشروط الفعل التواصلي، باعتبارها شبكة من العلاقات والأنساق اللسانية والسميائية والثقافية الخاضعة باستمرار للتحول التاريخي الذي يفرض ذاته من خلال تجدد السياق أو المحيط.

النص المترجم

لا تزعم الخطاطة التالية تقديم الوضعية النموذجية للتواصل بقدر ما تفترض تناول الشروط الضرورية للتواصل:

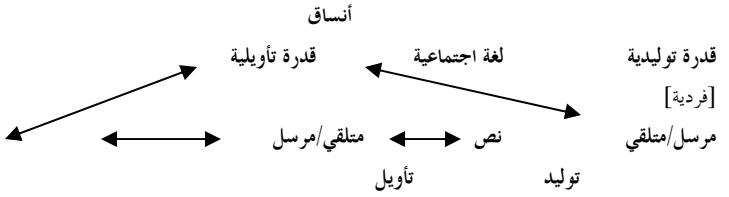

محيط

يمكن توضيح وضع مختلف مراكز هذه الخطاطة كالتالي:

1) غالبا ما يتم اعتبار كل من المرسل والمتلقي بوصفهما ذاتين(1) غير أنه يبدو من المناسب تناول هذين المفهومين بشكل مفصّل:

أ ــ يمثل كل من المرسل والمتلقي، بالنسبة لنا، مواقع يشغلها، في المقام الأول، ممثلون (وليس أشخاصا). يتحدد الممثلون بوصفهم مجموعة من الأدوار المنضوية ضمن سميوطيقا العلاقات الاجتماعية. إذ يمكن أن يكون هؤلاء الممثلون كائنات بشرية أو غير ذلك (أنساقا معلوماتية)، دون التمييز بين كونهم حاملين لقصدية ما أو غير حاملين لها، كما يمكنهم أن يكونوا أفرادا أو جماعات (مثال نص قانوني مشرّع من طرف البرلمان وموجه إلى الجماعة الوطنية)، دون أن يكونوا بالضرورة مماثلين لشخصيات لها وجود تاريخي محقق أو غير محقق (هوميروس، مؤلفي ألف ليلة وليلة). يقيم ممثلو التواصل (مع إدراج توليد النص وتأويله داخل عملية التلفظ(2)) علاقات معقدة مع ممثلي التلفظ الممثل. فمثلا، يقيم مؤلف(3) "البحث" علاقات مع ممثلي التلفظ الممثل هما السارد ومارسيل. وهي علاقات مسننة بحسب الأنواع الأدبية التي تحدد نمط وعدد الأدوار الخاصة بالتلفظ بشكل عام (والخاصة كذلك بالتلفظ الممثل بشكل خاص).

ب ــ يعتبر كل من المرسل والمتلقي، من مستوى التحليل النفسي والاجتماعي الذي لا يندرج ضمن اهتمامنا، شخصان ينجزان، بشكل مؤقت، أدوار ممثلي التلفظ. إنهما يتميزان، بوصفهما شخصين، بامتلاكهما لقدرات توليدية وتأويلية. كما تتميز علاقتهما بالنص بكونها علاقة تفاعل غير أحادية الاتجاه: فالنص يمارس تأثيرا على مؤلفه الذي لا يقتصر على إنتاجه فحسب، بل يقوم بتأويله كذلك (من خلال التصحيح والقراءة المتكررة إلخ)، كما يمارس القارئ تأثيرا على النص من خلال إعادة إنتاجه إلى حد ما (فهو يقوم باستشرافه وتكملته وحذف جوانب منه، إنه، باختصار، يقوم بإعادة كتابته وذلك في حالة القراءة المنتجة).

من هنا، يفترض التلفظ اختيار نمط من الأدوار الخاصة بالمرسل أو المتلقي، كما يفترض إنتاج وتأويل النص. ذلك أننا نقوم، من خلال مفهومي المرسل والمتلقي، بإدراج وساطة بين النص والأشخاص المشاركة في وضعية التواصل. فالنص لا يمثل التعبير البسيط والمباشر لذاتية ما (على الرغم من الادعاءات الحديثة واللاحقة عليها القائمة على اعتبار الفن صوتا(4)). إن الذات، بخلاف ما هو متداول، لا تتشكل ببساطة من خلال إنتاج أو تأويل النصوص، على الرغم من تأكيد بنفنست لـــ"وجود أساس الذاتية داخل الممارسة اللغوية" (ص.262). فالفرد مطالب، قبل كل شيء، بإنجاز

الأدوار المسننة اجتماعيا لكل من المرسل والمتلقي، لأجل تقوية ذاتيته أو، بتعبير آخر، تأكيد تذويت(5).

2) اشتغال مجموعة من أنماط الأنساق داخل النص.

أ ــ يقتصر اعتبار اللغة الوظيفية (في مقابل اللغة التاريخية عند كوسريو 1976) على كونها موضوعا لسانيا. إذ يتم النظر إلى شروط النسق اللغوي الوظيفي كما لو أنها تعليمات تتكون من أوامر ونواهي، فغالبا ما يتم تجاهل القدرات التي تشكل موضوعا لما يسميه دوناتيوس النحو الجائز.

ب ــ تتشكل اللغة الاجتماعية(6)، في إطار اللغة الوظيفية، من تراكمات إيجابية أو سلبية. إنها تنشأ، على الأصح، انطلاقا من ممارسة اجتماعية أكثر من ارتباطها بمجموعة اجتماعية محددة: فنحن نمتلك جميعنا مجموعة من القدرات السوسيولغوية المرتبطة بهذه الممارسات (رياضة، سياسة، تعليم..) تتوفر كل واحدة من هذه الممارسات على معجم خاص له بنياته الدلالية وأنواعه النصية المرتبطة به (تقرير رياضي، إعلان مبادئ، مرافعة قضائية..).

ج ــ تمثل اللغة الفردية نسقا من الضوابط النصية الخاصة بمرسل ما. وإذا كان كل المتكلمين يمتلكون عادات ومميزات خاصة بهم، فإنهم لا يستطيعون جميعا أن يجعلوا قدراتهم اللغوية الفردية نسقية. إذ يمكن فعليا لضوابط اللغة الفردية أن تناقض وتخرق ضوابط النوع (المنضوية ضمن اللغة الاجتماعية)، بل يمكن أن يمتد خرقها إلى اللسان كذلك(7). تجسد النصوص الأدبية الأمثلة الأكثر نضوجا بخصوص التشكيلات اللغوية الفردية، بخلاف باقي النصوص التي لا تستطيع، بالطبع، تقديم تشكيلات مماثلة لاسيما وأن بعض الأنواع تعرقل الإبداع اللغوي الفردي (الرسالة الإدارية مثلا).

تعرف الأنماط النسقية الثلاث المذكورة أعلاه تفاعلا مستمرا، حيث تتشابك،على المستوى السانكروني، بشكل طبيعي داخل النصوص. فهل يعود أمر وصف هذه التفاعلات إلى لسانيات متطورة أم إلى سميائيات محددة؟ لنترك هذا السؤال معلقا على أمل أن يحدث تطور نسقي قادر على بلورة الوسائل النظرية الخاصة بتقديم المسألة بشكل أفضل. في المقابل من ذلك، تعرف تلك الأنساق، على المستوى الدياكروني، تطورات تختلف امتداداتها الزمنية. إذ يمكن قياس الامتداد الزمني للغة الفردية انطلاقا من وحدة العقد (فمثلا، امتدت إنتاجات اللغة الفردية الخاصة بمالارميي على طول ثلاثة عقود زمنية)، بينما يقاس الامتداد الزمني للغة الاجتماعية من خلال القرون (مثلا، ظلت اللغة الأدبية الكلاسيكية الفرنسية تبتذل زهاء قرنين من الزمن)، أما فيما يخص تطور بعض أنساق اللغة الوظيفية أو

استمرار بعضها الآخر فيمتد إلى آلاف السنين (يقال بأن نسق أدوات التعريف الخاصة باللغة الفرنسية لازال تشكله مستمرا انطلاقا من اللغة اللاتينية).

إن هذا التمييز بين أنساق (أو على الأصح، بين درجات نسقية من وجهة نظر لسانيات غير ضيقة) يعتبر ضروريا لأجل توضيح تأثير التاريخ الاجتماعي على اللغة. فمثلا، يمكن لاختراعات فردية أن تصبح نماذج نمطية تندمج، في نهاية المطاف، داخل المعجم(8). من هنا، يمكن النظر إلى المعجم بوصفه مقترحا يتم تثبيته. كما يمكن النظر إلى مختلف الأنساق الزمنية المثارة أعلاه، باعتبارها تعرف درجات للتثبيت حيث يشكل الرسو النهائي عنصرا مورفولوجيا قابلا للإدماج(9).

3) يشمل المحيط (أو السياق غير اللساني بالمعنى الواسع) كلا من العناصر الأخرى المتمثلة في النص والمرسل والمتلقي. فهو يحتوي المؤولات الضرورية لتحيين مضامين النص، وينتظم وفق ثلاث دوائر ممتدة ومتنامية:

أ ــ دائرة السميوطيقا المشاركة في تشكيل النص (تعابير الوجه، تعابير جسدية، أشكال خطية أو مطبعية، مثل، موسيقى، صور، تمثيلات..). يشهد النص حضورا دائما لشكل من هذه الأشكال السميائية أو لأشكال متعددة منها، نظرا لامتلاك التواصل اللساني طبيعة متعددة سميائيا(10).

ب ــ دائرة وضعية التواصل الممثلة بالخصوص في الممارسة الاجتماعية التي يتموقع النص ضمنها، والتي تحدد، في ذات الوقت، نوعه وباقي تشكلاته السوسيولغوية.

ج ــ دائرة المعارف الموسوعية للمجتمع الذي تنضوي ضمنه عملية التواصل. تشمل هذه الدائرة، كذلك، مجموع المعارف الموسوعية السابقة عن فعل التواصل والمنتمية لنفس المجتمع. كما تضم، بطبيعة الحال، كل المعارف المتوفرة حول المرسل والمتلقي.

يشترط في الرجوع إلى المعارف الموسوعية، على اختلاف أنواعها ومصادرها، أن يتم استنتاجها وفق التعاليم المفروضة من قبل النص أو النوع المنتمي إليه، كما يشترط فيه أن يضاعف من تماسك القراءة. لذلك، لا يعتبر هذا الرجوع مهمة سهلة ستقوم بتذويب اللساني داخل الإثني أو تذويب التاريخ داخل علوم أخرى. إن كل بحث ضروري لتأويل النص، يمكن تبريره لسانيا ولو كانت المعارف المستنتجة بعيدة عن مجال اللسانيات.

يبرز، هنا، مشكل أساسي بالنسبة للسميائيات التأويلية؛ فكلّما تغير المحيط كلّما تغير مضمون النص، نظرا لكونه محايثا لوضعية تواصلية قابلة للتعديل. من هنا، يخضع مضمون النص، وفق القاعدة

العامة، للإفقار بسبب ضياع المعارف في حالة حدوث تغير ثقافي أو انتقال تاريخي. يمكن تمثيل ذلك على الشكل التالي:

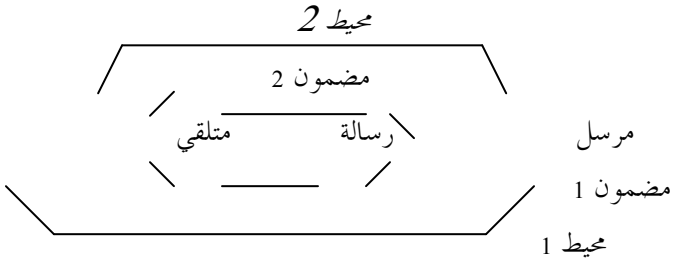

ينفتح، من هنا، اتجاهان للقراءة:

ـــ القراءة المنتجة التي تعيد تأويل النص وفق رغبة المتلقي، مع احتمال إعادة كتابته جزئيا لأجل إسناده إلى وضعيات ومراجع جديدة(11).

ـــ القراءة الوصفية التي تستجيب للهدف المتواضع والطامح، في ذات الوقت، إلى إعادة تكوين مضمون(12) النص، من خلال تشكيل محيط التواصل الأولي. تستطيع السميائيات التأويلية، باعتبارها منهجا علميا، أن تفترض تحقيق ذلك. فهي تعتمد بالضرورة على نتائج الفيلولوجيا، بالإضافة إلى قابلية تطورات كل من السميائيات والفيلولوجيا للتأقلم المستمر.

لقد خضع مشروع إعادة تكوين المعاني الأولية للنقد من طرف الهرمينوطيقا الدينية (فقد تم اقتحام نص الوحي من طرف التاريخية العالمية، وقد كان هنري كوربان Henry Corbin ينطلق من قدسية نص الوحي ليقول بأنه نص متعال عن التاريخ وليس تاريخيا). كما خضع المشروع للنقد من طرف الهيرمينوطيقا الأدبية (وذلك تحت ذريعة عدم قابلية الأعمال الرائعة للاستنفاذ). فمثلا كتب ريفاتير متسائلا: هل ينبغي الرجوع إلى المنهج التاريخي؟ وهل ينبغي، من خلال إعادة تشكيل جمالية مختلفة، بعث التعاقدات المتحجرة المنبثقة منها؟" نجيب بالإيجاب على هذا التساؤل على الرغم من نبرته الحداثية المحتقرة للمنهج التاريخي (الواضحة من خلال لفظة "المتحجرة")، لأن هذا المنهج ضروري لتشييد النص (وإن كان في السابق غير كاف). يتابع ريفاتير قائلا:"يعتبر تطبيق هذا المنهج في الأدب أمرا محدودا؛ فحتى لو افترضنا أننا قادرون حقا على إعادة تشكيل الوسط الذي أفرز التكوين الأول للعمل، والذي وجّه قراءه الأصليين نحو تأويل ما، فإن حصر قصيدة شعرية في مولودها الأول أمر غير مقبول، لكونها تحتوي مواليد أخرى مفترضة تنميها القراءات اللاحقة."(ريفاتير:،ص.). إن ما يقوله ريفاتير أمر وارد، غير أن بعض الاعتراضات تحول دون قبوله بشكل مطلق: أولا، لا يمكن أن يشكل

المولود الأول "إعادة تجسيد" تامة للنص. ثانيا، لا يحتوي النص في حد ذاته مجموع قراءاته الممكنة، لأن التغيير المستمر لمحيطه هو الذي يعمل على ابتكار وضعيات جديدة للتواصل تسمح بتشكيل تأويلات جديدة. ثالثا، ينبغي على تاريخ قراءات نص ما أن يبنى انطلاقا من الأصل؛ فعلى الرغم من كون القراءات الأولى لا تعتبر جوهريا الأفضل، إلا أن معرفتها ضرورية لبناء ذلك التاريخ وربطه بتغيرات المحيط.

تجدر الإشارة في نهاية المطاف، إلى وجوب الفصل بين المحيط والمرجع. فنحن لم نخصّص داخل وضعية التواصل مكانا مستقلا للمرجعية، على الرغم من تمييز جاكبسون داخل عوامل التواصل الستة لـــ"السياق" أو "المرجع" الذي تنتج عنه الوظيفة "المرجعية" (المسماة كذلك بالوظيفة "التقريرية" أو "الإدراكية"، أنظر جاكبسون ، ص.). تعتبر مسألة المرجعية، بالإضافة إلى كونها تندرج ضمن فلسفة اللغة أكثر من اتصالها باللسانيات، مسألة تطرح بعد إعادة بناء المعنى. لذلك فهي لا تتعلق بالنسق والنص فحسب، بل تتعلق بتفاعلاتهما مع كل من المحيط والمخاطبين. من هنا، لا يمكن قبول أطروحة المعنى الحرفي والتقريري المستخلص مباشرة، بوصفها أطروحة تؤسس، على الرغم مما يقال، علم الدلالة الحقيقية.

4) لقد وصلنا، أخيرا، إلى النص الذي يمكن أن نتتبع بشأنه الفصول الخاصة بوصف المكونات النسقية الأربع المشكّلة لمستواه الدلالي، وهي: المكون الثيمي، المكون الجدلي، المكون الحواري ومكون التنظيم. تحدد هذه الفصول التصورات الوصفية المفيدة في تحليل النصوص ونمذجة الأنواع.

---

* ـــ النص المترجم مأخوذ من:F. Rastier. Sens et textualité, éd.Hachette, , P,P.,.

1ـــ تعتبر مقولة الذات جذابة غير أنها تبدو, بالنسبة لنا,غير مستعملة في إطارها الطبيعي. تمنح نظريات التلفظ في مقابل ذلك ومنذ مقال بنفنست النموذجي حول ذاتية الكلام, مكانة بارزة للذات دون أن تمنحها بالتالي تعريفا علائقيا على غرار ضمير المتكلم. أنظر بنفنست 1966, ص.260

2ـــ غالبا ما استعملت كلمة التلفظ لتعيين التأويل أيضا, غير أن التوليد قد حظي باهتمام الباحثين بشكل استثنائي.

3ـــ لا يملك المؤلف, بوصفه مجموعة من الأدوار, الحالة المدنية لشخص ما, غير أنه بإمكانه اقتناء اسم مزيّف.

4ـــ أنظر. كورت شويتيرز: "يمثل كل ما يخرجه الفنان من إفرازات حلقية فنا".

5-ـــ تسنن الأنواع نمط وعدد الأدوار الخاصة بالتلفظ بصفة عامة (والخاصة كذلك بالتلفظ الممثل بصفة خاصة).

6ـــ إن الحديث عن اللغة الاجتماعية هو حديث عن لغات اجتماعية متعددة بشكل رائع. أنظر رابلي وجويس.

7ـــ يمتلك الكاتب, حسب فاليري حق اغتصاب الأنساق النحوية شرط إنجاب أطفال يقدّمها لها.

8ــ لقد تم, على سبيل المثال, وصف هذا المسار من خلال علم الديالكتيك داخل المجموعات اللسانية الصغيرة المحاذية لجبال الألب. أنظر. أعمال بلانج Plangg.

9ــ أنظر حول الأفعال المشتقة من التعابير: بنفنست , الفصل XXIII.

10ــ لا يمكن الحديث عن التواصل اللساني "الخالص" إلا على مستوى التجريد الملائم بالنسبة للسانيين الذين لا يبالون بالعنصر السميائي.

11ــ تحتوي بعض النصوص, كالأمثال, ضمن خصائصها النوعية توجيها معمما لإعادة الكتابة الرمزية. يسمح هذا التوجيه بالتحول المستمر لتلك النصوص إلى وضعيات جديدة. كما تخضع كل المقترحات المحتفظ بها لنفس التحول الذي تخضع له النصوص الخاصة بالأمثال. يرى كونفوكيوس أن "المعلم الجيد هو الذي يستطيع استخراج الجديد من خلال تدفئة النصوص القديمة."(تستعمل الخاصة المعبر عنها هنا عبر "التدفئة" نفس استعمالها داخل المطبخ). أنظر:. Confucius. Entretiens II, 11

12ــ لا نفترض إعادة تكوين معنى واحد, لأن بإمكان مضمون نص ما أن يكون متعدد الأصوات خلافا لما ذهب إليه فيلولوجيو القرن الماضي.

صدر للشاعرة فليحة حسن